تاريخ العرب والعالم

مجلة مصورة تبحث في التاريخ العربي

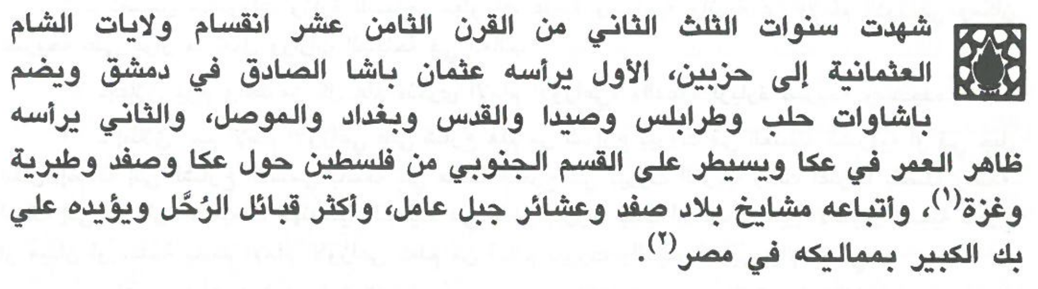
السنة السابعة عشرة ـ العدد ١٦٦ ـ آذار (مارس) نيسان (أبريل) ١٩٩٧ ـ شوال/ذو القعدة ١٤١٧هـ





تحالف القوى الإقليمية في بلاد الشام ومصر ينتزع صيدا من السيادة الشرعية العثمانية

أ. د. حسين سلمان سليمان(*)

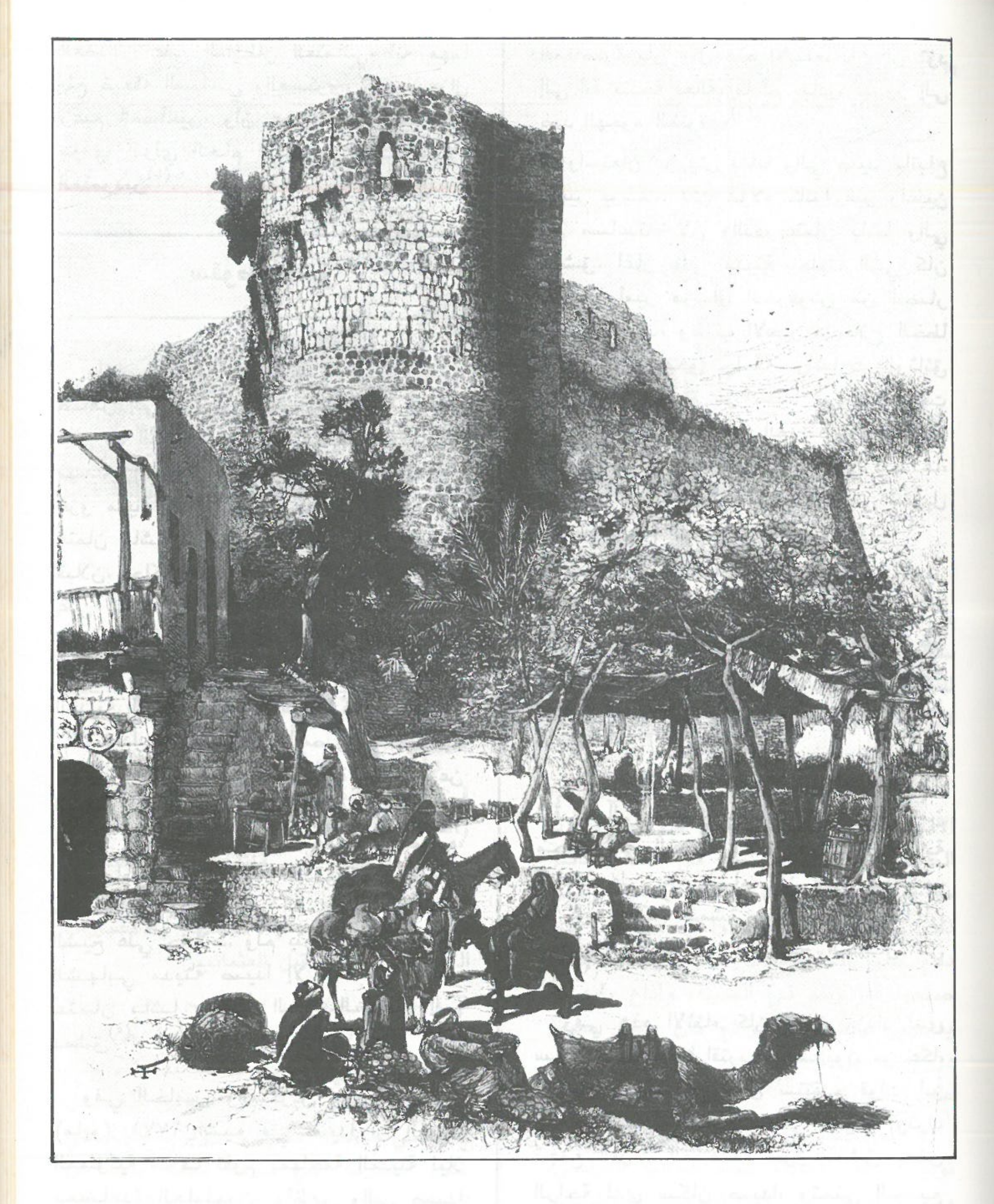


شهدت سنوات الثلث الثاني من القرن الثامن عشر انقسام ولايات الشام العثمانية إلى حزبين، الأول يرأسه عثمان باشا الصادق في دمشق ويضم باشاوات حلب وطرابلس وصيدا والقدس وبغداد والموصل، والثاني يرأسه ظاهر العمر في عكا ويسيطر على القسم الجنوبي من فلسطين حول عكا وصفد وطبرية وغزة[١]، وأتباعه مشايخ بلاد صفد وعشائر جبل عامل، وأكثر قبائل الرُحَّل ويؤيده علي بك الكبير بمماليكه في مصر[٢].

وانعكس هذا الانقسام على أمراء الأسرة الشهابية في جبل الدروز، فبينما اعتمد الشيخ سعد الحوري وسيده الأمير يوسف الشهابي على عثمان باشا في مناهضة أمير جبل الدروز منصور الشهابي وإزاحته عن منصبه والحلول مكانه، كان موقف الأخير يتحدد إلى حد بعيد بالمساعدات التي كان يتلقاها من والي صيدا السابق محمد باشا العظم. ولما يكن أمير جبل الدروز يجرؤ على مقاومة العثمانيين، فقد اتبع الأساليب المألوفة في هذا المجال، أي التظاهر بمظهر المخلص لهم في حين كان يساعد في الخفاء عدوهم ظاهر العمر[٣].

ومما ينبغي الإشارة إليه أن أحداً من زعماء حزب المتمردين (ظاهر العمر وعلي بك الكبير وناصيف النصّار) تجرأ وأعلن استقلاله عن السلطان العثماني، رغم السلطة التي تمتع بها كل منهم في منطقة نفوذه، وإنما كانوا يعلنون العصيان العلني على ممثلي السلطة العثمانية في مناطقهم، بحجة الظلم والاضطهاد الذين يتعرضون له من قبل هؤلاء، والسبب في امتناعهم عن إعلان

(*) الجامعة اللبنانية، كلية الآداب، الفرع الرابع، كسارة.



○ قلعة صيدا البرية.

العصيان على السلطان العثماني، أنه مهما بلغ ضعفه السياسي والعسكري، كان لا يزال زعيم المسلمين، وأن عصيانه من شأنه أن يؤلب الرأي العام الإسلامي ضد هؤلاء المتمردين[٤].

سقوط دمشق

وانضمت القوات العاملية وجنود أبناء ضاهر إلى الحملة المملوكية التي أرسلها علي بك الكبير لاحتلال بلاد الشام، وفي ٢٥ نيسان (أبريل) عام ١٧٧١ قرر العامليون غزو مدينة صيدا ليلاً، وعلم الوالي درويش عثمان باشا بقرارهم هذا عن طريق الشيخ قبلان، حاكم مدينة صور، الذي كان يقف على الحياد في الصراع الدائر على النفوذ في بلاد الشام. فاتخذ الباشا الاستعدادات اللازمة، فاستنفر قواته ووضعها على أبواب المدينة الثلاث، ونظراً لانشغال والده وشقيقه بالاستعداد لصد القوات المصرية، إستنجد بالأمير يوسف شهاب للمساعدة بالدفاع عن المدينة إذا تعرضت للهجوم المتوقع فحضر الأخير إلى صيدا ومعه بضع مئات أنصاره، كان بإمكانه أن يزيد عددها عند الخطر، بالاستعانة بخمسة عشر ألف رجل من أتباع الشيخ علي جنبلاط. ولم يترك الأمير يوسف الشهابي مدينة صيدا إلا بعد أن حضر عثمان باشا بقافلة الحج الشامي إلى دمشق[٥].

وفي الخامس والعشرين من شهر أيار (مايو) ١٧٧١ أشيع في صيدا أن القوات المملوكية سوف تقوم بمهاجمة المدينة ليلاً بمساعدة العامليين، وأظهر والي صيدا شجاعته، واستنفر قواته واستحضر المدافع ووضعها على التحصينات القديمة التي تشرف على الأرياف، وضاعف الحراسة على أبواب المدينة. وأشارت الوثائق الفرنسية المعاصرة بأن «كل هذه الاستعدادات لن تؤد إلى أية نتيجة فعالة، ما لم يبادر الدروز إلى صد الهجوم المتوقع»[٦].

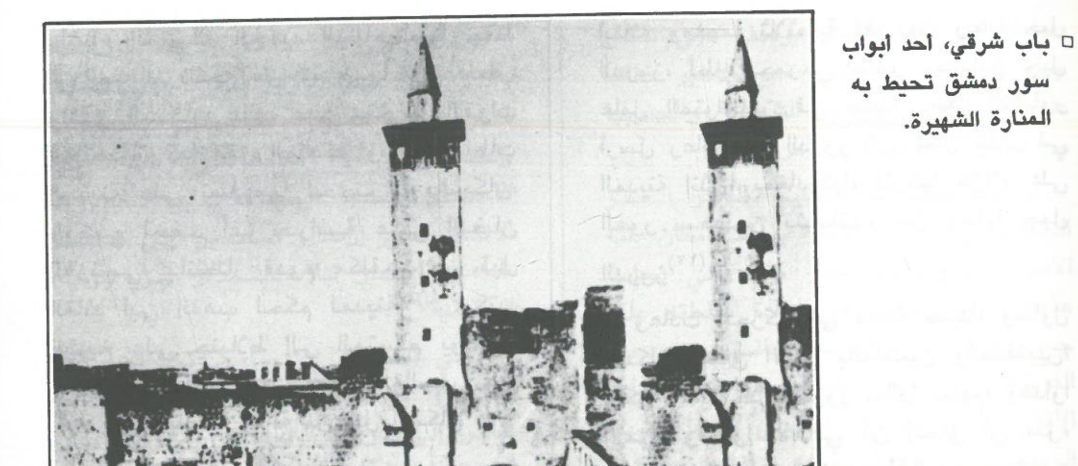
واستعان درويش باشا والي صيدا بأتباع الأمير يوسف، لكن هؤلاء كانوا غير راغبين في مساعدته، لأن والده، عثمان باشا والي دمشق، أغار على مدينة بعلبك التي كان حاكمها أمير من آل الحرفوش من أنصار الأمير يوسف، وطالب الأخير بإصلاح الخطأ الذي ارتكب بحق حليفه. وأشارت الوثائق الفرنسية الصادرة عن صيدا في هذا الوقت إلى ذلك بقولها: «هذه المدينة (أي صيدا) ليست بعيدة تماماً عن الخطر الذي يتهددها، إذا لم يبادر عثمان، باشا دمشق، إلى تحويل الاستياء العام الذي يسود جبل الدروز»[٧].

وبعث عثمان باشا برسائل إلى الأمير يوسف، كان لها وقعها في إعادة الوئام بينهما، وفرحت المدينة بذلك، ورغم ذلك ظل الخوف والرعب مسيطراً على درويش باشا، وامتنع عن الطعام والنوم، وكان يبكي لأبسط الأمور[٨].

وفي الأول من حزيران (يونيو) ١٧٧١ تلقى والي دمشق عثمان باشا انذاراً من محمد أبي الذهب، قائد القوات المصرية الزاحفة على بلاد الشام، بأن علي بك الكبير قد عينه حاكماً لدمشق، وأن على الباشا أن يغادر المدينة فوراً ليريح السكان من أذيته[٩].

وفي هذه الأثناء كان القلق يزداد لدى سكان صيدا، كلما اقترب المصريون من عكا، ويتساءلون إلى أي مدى ستتقدم قوات أبو الذهب؟ ألم تزحف بعد إلى صيدا؟ وترك تجمع القوات المتحالفة حول دمشق بعض الراحة لدى سكان صيدا، وتمنى الجميع حصول عمل حازم، وتوقفت التجارة في المدينة.[١٠]

وفي ٧ حزيران (يونيو) ١٧٧١ تعرضت القوات المدافعة عن دمشق لهزيمة ساحقة



□ باب شرقي، احد ابواب سور دمشق تحيط به المنارة الشهيرة.

في داريا، وانعكس صدى سقوط دمشق على سكان مدينة صيدا الذين كانوا يستعدون للدفاع عنها، فأصيبوا بالذهول حين بلغهم في الحادي عشر من حزيران نبأ سقوط دمشق[١١].

وقرر درويش باشا الخائف، الهروب إلى الأمير يوسف الشهابي الذي سوف يؤمن له الملجأ لديه، واستعد لذلك في مساء العاشر من حزيران، لكن سكان المدينة منعوه، وليس ذلك بسبب تركه لهم، ولكن لإجباره على دفع ثمن المفروشات التي أرغمهم على صنعها له. ونام في المدينة، وأذاع بأنه لن يغادرها، ولكنه في الواقع كان ينتظر معونة درزية تسهل له الخروج، وكان يعلق الآمال على الأمير يوسف[١٢].

وخشي القنصل الفرنسي في صيدا من نوايا السكان السيئة تجاه الجالية الفرنسي، وما قد يترتب على ذلك إذا صحت الإشاعات التي كانت تصله بأن الخان الفرنسي سوف يتعرض للنهب. فجمع التجار الفرنسيين في العاشر من حزيران (يونيو)، وأحاطهم علماً بمخاوفه تلك، واستشارهم فيما يجب القيام به للحفاظ على أنفسهم وممتلكاتهم. وبعد المداولات رفع المجتمعون بمخاوفهم إلى سلطات المدينة، التي طمأنتهم وضاعفت الحراسة على الخان ومنزل القنصل[١٣].

وفي نفس الوقت كتب القنصل الفرنسي في صيدا إلى زميله في القاهرة أميرات (D'Amirat)، للاتصال بعلي بك لكي يصدر رسائل توصية إلى قائده أبي الذهب في بلاد الشام، لكي تنعم الجالية الفرنسية في بلاد الشام بالحماية نفسها والامتيازات الممنوحة لها من قبل العثمانيين[١٤].

وبهروب درويش باشا لم تعد مدينة صيدا تنتظر، سوى قدوم ضابط من قبل محمد بك أبي الذهب لإخضاعها لسلطته، وأصيب السكان بالذعر. وأغلق القنصل الفرنسي الخان، بانتظار رؤية الهدوء في شكل الحكومة التي سوف تجعله بعيداً عن الخطر، وكان خوفه من الفاتحين الجدد أقل من خوفه من السكان[١٥].

وتسلم حكم مدينة صيدا أحمد آغا حمود، وهرب معظم السكان بنسائهم وأطفالهم،

وأشاع المتسلم الجديد النظام، مما حفظ الجالية الفرنسية من تعرضها لأي خطر. واتفق السكان على عدم مقاومة القوات المنتصرة، كما اتفق المتسلم وباقي سلطات المدينة على تسليمها لحجب دم السكان، ووضع أحمد آغا حراسة على الخان الفرنسي، بانتظار قدوم مكلفين من قبل القائد أبي الذهب لحكم لمدينة[١٦]. وكتب الشيخ علي جنبلاط إلى المتسلم يوصيه، بحسن معاملة الجالية الفرنسية والسهر على عدم تعرضها لأية إهانة من قبل السكان[١٧].

وأرسل الشيخ ظاهر العمر جمركي من قبله، يرافقه ثلاثة مشايخ من العامليين لإدارة حكم صيدا[١٨]. وفي اليوم الثالث عشر من حزيران أرسل ضابطاً من قبله جدد تعيين أحمد آغا حمود كمتسلم للمدينة من قبل الشيخ ضاهر، وأذاع في نفس الوقت بأن يطمئن الجميع، وبأن يعود الهاربون إلى صيدا، وأن تستمر الأعمال كما كانت في السابق دون أن يعكرها شيء. ثم دخل العامليون إلى المدينة وأقاموا في السراي، وكان يرافقهم ما بين مئة ومئة وخمسين فارساً مما أثار حفيظة رعايا جبل الدروز[١٩].

وفي الوقت الذي كان من المنتظر فيه أن يتابع محمد بك زحفه، أعلن يوم الثلاثاء ٥ ربيع الأول ١١٨٥هـ/١٨ حزيران ١٧٧١م الانسحاب، دون أن يترك أحداً من قبله في دمشق بل سلم سلطاتها إلى آغا القلعة[٢٠]، مبرراً حملته على بلاد الشام:

«... إنه كان سبب مجيئنا لهذه البلاد الشامية لأجل مقابلة عثمان باشا، فلو خرج لنا للخارج ما قارشناكم (قاتلناكم)، وتعرضنا للقلعة أخبرونا أن بها عثمان باشا وأمواله، فلما تحققنا ذهابه وانه ليس بها رفضنا التعرض، وما مرادنا بلدتكم ولا اضراركم وأذيتكم...»[٢١].

ويبدو بأن الشيخ علي جنبلاط قد علم بانسحاب القائد المصري، فأرسل في العشرين من حزيران (يونيو) اثنين من أبنائه ومعهما ثلاثمائة نفر من رعايا جبل الدروز، لطرد جمركي ظاهر ومشايخ جبل عامل المتواجدين في صيدا. وبعد التشاور أرسل رعايا جبل الدروز إلى عمال ظاهر في المدينة انذاراً بمغادرتها، فتركها هؤلاء على الفور سعيدين بنجاتهم من رعايا جبل الدروز[٢٢].

وعادت الحركة إلى مدينة صيدا، وحاول السكان إلحاق الأذى بالعامليين والصفديين، ولكن رعايا جبل الدروز حالوا بينهم، وهدأوا الأمور ومنعوا الأهالي من إلحاق أي سوء بالفارين. وبعد اجتماع أهالي صيدا مع المتسلم أحمد آغا حمود أذاع الأخير بياناً باسم السلطان، بأن يعود الجميع إلى أعمالهم، وأرسل حرساً من قبله لحماية الخان الفرنسي من أية إهانة أو أذية[٢٣].

وشعر السكان بالطمأنينة من الحماية التي أمنها لهم الزعيم الجنبلاطي، الذي أبقى أبناءه في المدينة، إلى حين قدوم حاكم شرعي من قبل السلطات العثمانية. وكان الجميع يطالب بضرورة إقالة عثمان باشا والي دمشق وأبنائه درويش ومحمد في صيدا وطرابلس، بسبب سلوكهم السيء والظلم الذي ألحقوه بالسكان[٢٤].

نتائج معركة بحيرة الحولة

وبانسحاب أبي الذهب تبدل موقف الأمير يوسف الشهابي من الصراع السياسي الدائر في بلاد الشام، فتخلى عن موقف الترقب والتبصر وجاهر بعدوانه للزعيم الزيداني[٢٥] كما بدأ مربيه ومستشاره الشيخ سعد الخوري في دس الدسائس وتخريب زعماء طوائف الجبل السبع لصالح الأمير الشاب[٢٦]. وبدعوة من الأمير منصور الشهابي اجتمع هؤلاء الزعماء وتخلى أمامهم عن كافة صلاحياته في الحكم، واعترف

بسلطة ابن أخيه الأمير يوسف على سكان جبل الدروز[٢٧]. وبذلك أصبح الأخير حاكماً على المقاطعات اللبنانية الشمالية والجنوبية من ظاهر طرابلس إلى ظاهر صيدا.

ازدادت مخاوف الشيخ ظاهر العمر الزيداني بعد تولي الأمير يوسف مكان عمه الأمير منصور، في حين كان والي دمشق عثمان باشا يرغب في إعادة سلطته على جميع أجزاء ولايته، فاقترب صدام الفريقين[٢٨]. وزحف الباشا بقواته لاستعادة الاقاليم التي كان قد استولى عليها الشيخ الزيداني من ولاية دمشق وأقام معسكره على الشاطىء الغربي لبحيرة الحولة[٢٩]، لكن قوات ظاهر العمر وناصيف النصار انقضت على معسكر الباشا في آخر ليلة من شهر آب (أغسطس) ١٧٧١ وأنزلت الهزيمة بقواته[٣٠].

وقد رصدت الوثائق الفرنسية الصادرة عن صيدا، تأثير الانتصار على مدينة صيدا بقولها:

«... حملاتهم الناجحة أثارت الحزن لدى سكان صيدا، وانتشر الرعب والخوف في هذه المدينة وضواحيها من عودة الحرب ومآسيها، وانعكس هذا الوضع على تجارتنا وعلى استقرارنا فقد أصبنا بنكسات بالغة الشدة وتوقفت الأولى تماماً...»[٣١].

وازدادت مخاوف والي صيدا درويش باشا حين بلغه نبأ وصول ما يقارب الألفين إلى الثلاثة آلاف جندي مصري إلى غزة، ورسو سبعة عشر مركباً محملة بالمؤن في يافا، وبأن جميع هذه القوات سوف تحضر إلى صيدا لمحاصرته براً وبحراً[٣٢].

وفي العاشر من تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٧٧١ أمر ظاهر العمر المراكب المصرية بالتوجه من يافا إلى صور ومن هناك إلى صيدا، وطلب من العامليين الاجتماع به في المعسكر العام الذي سيقيمه على بعد ثلاث ساعات من صيدا[٣٣].

وخشي درويش باشا أن يسيطر أعداء والده على صيدا، وأن يتعرض لانتقامهم، فقرر مغادرة المدينة واللجوء إلى دمشق[٣٤]. وعقد الديوان[٣٥] وأطلعه على رغبته، ولكن الأعضاء رفضوا الموافقة على ذلك، وتم الاتفاق على إرسال ضابطين إلى معسكر ظاهر العمر للاستفسار عن نواياه الحقيقية[٣٦].

وفي الحادي عشر من تشرين الأول (أكتوبر) عاد المبعوثان ومعهما جواب الشيخ ظاهر إلى درويش باشا، وفيه أن عداوة الشيخ لوالي دمشق عثمان باشا تجبره على أن لا يجعل ابنه والي صيدا يدفع الثمن، ولكنه ينذره بمغادرة المدينة مع جميع رجاله بعد يومين، وله الخيار بالانسحاب، إما إلى جبل الدروز أو إلى جبل عامل، وإذا عاند ورفض هذه الشروط، فسوف يكون الضحية الأولى وسبب المصائب التي سوف تصيب السكان[٣٧].

وفي يوم الثالث عشر من تشرين الأول شعر الباشا باقتراب الساعة المحددة له لمغادرة صيدا، فتركها ظهراً وسلم إدارتها إلى سلطاتها لكي تسلمها إلى أول من يطلبها منها[٣٨]، ثم التقى عند نهر الأولي بفرقة من جبل الدروز يقدر عددها بحوالي أربعمائة رجل، منعوه من متابعة سيره، وأعلموه بأنهم مرسلين من قبل الأمير يوسف[٣٩].

وفي الرابع عشر من تشرين الأول (أكتوبر) حضر الأمير أفندي الشهابي وطلب من درويش باشا دخول صيدا معه، وأرسل فرقة خيالة ليدخلوا إلى المدينة ويبلّغوا من فيها عودة الباشا[٤٠]. وحاولت القوات الموجودة في داخل صيدا منعهم من الدخول، بحجة أنهم لن يسلموها إلا للأمير يوسف أو للشيخ ظاهر، الذين كانوا يتوقعون دخوله إليها في ذلك اليوم. وبعد التهديد والوعيد تمكن خيالة الأمير أفندي دخول المدينة، ثم تبعهم بعد نصف ساعة الأمير

أفندي والباشا يصحبهما ألف فارس. وكان ذلك مفاجأة للشيخ ظاهر، فعاد إلى عكا وترك حلفائه العامليين في المعسكر، وما لبث أن انسحب هؤلاء بدورهم[٤١].

معركة النبطية

وكان ما حدث بمثابة انتصار معنوي للأمير يوسف الشهابي، فوجه إليه الباب العالي خط شريف يأمره فيه بمهاجمة بلاد عاملة، ويعفيه مقابل ذلك عن ميري بلاده لمدة سنتين[٤٢]. وفي التاسع عشر من تشرين الأول عام ١٧٧١ تجمعت القوات التي طلبها الأمير يوسف، وبعد أن ترك في صيدا الشيخ علي جنبلاط ومعه ألف وخمسماية مقاتل لحراسة المدينة من أي عدوان مفاجيء، قاد الأمير هذه القوات إلى جبل عامل تنهب وتدمر القرى التي تمر بها[٤٣].

وفي العشرين من تشرين الأول ١٧٧١ ظهر على شاطىء مدينة صيدا المراكب المصرية التي وجهها ظاهر العمر من يافا لاحتلال المدينة، فحاولت أن تقوم بعملية إنزال بحري، لكن مدفعية المدينة حالت دونها، وتبادل الفريقان القصف ولم تلبث أن عانت مدفعية القلعة من نقص البارود. فطلب درويش باشا من القنصل الفرنسي في صيدا أن يزوده بالبارود، وإلا تعرضت الجالية الفرنسية لانتقام الأهالي، فاضطر الأخير أن يأتيه بعشرين رطلاً من قعر إحدى السفن الفرنسية الراسية في ميناء صيدا. وحين وجد المصريون أنهم لم يتمكنوا من احتلال المدينة انسحبوا بمراكبهم إلى صور[٤٤].

وفي ٢١ تشرين الأول وصلت إلى صيدا أنباء هزيمة الأمير يوسف في النبطية. فدب الرعب في قلب الشيخ علي جنبلاط ودرويش باشا، وخشيا أن تتابع زحفها إلى صيدا قوات جبل عامل المنتصرة، وليس لدى المدينة القوات الكافية للمدافعة عنها، مما يعرضها لخطر الوقوع في قبضة ظاهر وحلفائه[٤٥]. كما شعر المشايخ الذين أبقاهم الأمير يوسف في المدينة بأن قواتهم سوف تتعرض للهزيمة بجانب القوات العثمانية، ولن ينالوا أية نتيجة من الدفاع عن صيدا ضد ظاهر والعامليين، فأخلوا المدينة بعد أن نهبوها وهرب معهم درويش باشا[٤٦]. وتسلمت سلطات المدينة مسؤولية الأمن فيها[٤٧].

وقرر ظاهر وحلفاؤه الاستفادة من هذا النصر والعودة إلى صيدا، التي أصبحت خالية من الجنود بعد أن كانت تعج بهم[٤٨]. فسار الشيخ الزيداني بقواته من عكا إلى صور، حيث أقامت معسكراً فيها، وأمر المراكب الروسية الراسية في ميناء صور بالإبحار إلى صيدا[٤٩].

وفي صباح الثالث والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٧٧١ وصل العامليون إلى أبواب صيدا، وأعطوا السكان الأمان والطمانينة، وأشاعوا بينهم بأنهم لن يسيئوا إلى أحد، فوثق الأهالي بكلامهم وفتحوا لهم أبواب المدينة، فدخلوها والسيوف بيدهم، ثم أخذوا ينهبون كل ما صادفوه، وخلعوا وكسروا أبواب المنازل والمخازن، ورفعوا محتوياتها من مفروشات وثياب وبضائع. ولم يفرقوا في السلب بين رجل أو امرأة أو طفل، وخلال ثلاث ساعات لم يكن يُسمع في المدينة سوى الصراخ والعويل ولكنهم لم يقتلوا أحداً[٥٠].

وعمَّ الخوف وخشي القنصل الفرنسي والجالية أن يصيبهم ما أصاب السكان، لكن الغزاة الجدد احترموا تعليمات ظاهر القاضية، بعدم التعرض للفرنسيين بأي أذى. وكلف القنصل بعض جنود ظاهر بحراسة الخان لمنع التعديات عنه، وقد أصابت النكبة جميع سكان المدينة ونادراً ما وُجِدَ منزل سلم من النهب[٥١].



□ علي بك الكبير

وبعد ثلاث ساعات وصل إلى المدينة الشيخ ناصيف النصار والشيخ عباس العلي والشيخ علي ظاهر العمر فأوقفوا النهب وأبدو كثيراً من الالم لما حصل[٥٢]. وبعدما أمنوا القنصل الفرنسي، تركوا له حراسة على الخان، وأخرجوا جميع القوات التي اجتاحت المدينة وحاولوا إعادة النظام والهدوء إليها[٥٣]. ثم رسى ثمانية عشر مركباً تحمل حاكم المدينة من قبل علي بك ويدعى الكاشف مصطفى بك، ومعه سبعماية جندي أعادوا الأمن إلى صيدا[٥٤]. وأبدى الحاكم الجديد استياءه لما أصاب السكان، وأبلغ ترجمان القنصلية الفرنسية، بأن نية سيده علي بك إنقاذ الأهالي من الظلم وانعاش التجارة، وبعد أن تفقد القلعة والمدينة[٥٥]، طلب من المشايخ العامليين أن يخرجوا بفرسانهم[٥٦]. ثم حضر إلى صيدا حاكمها من قبل ظاهر العمر ويدعى أحمد آغا الدنكزلي ومعه قوات من الصفديين، واهتم بتحصين أسوار المدينة لتتمكن من الصمود إذا ما تعرضت لأي هجوم مفاجيء، واستخدم في سبيل ذلك عدداً كبيراً من السكان. ومع ذلك ظلت الأسوار ضعيفة، لا يمكنها الصمود أمام طلقة مدفع، كما أفاد القنصل الفرنسي الذي شهد ذلك[٥٧]، والذي ألقى مسؤولية سقوط المدينة على عثمان باشا وابنه درويش[٥٨].

وكانت معظم القوات المملوكية التي دخلت المدينة من الأتراك، الذين أجبرهم علي بك على الحضور إلى صيدا بالقوة، وكانوا في حالة خوف دائم من أن يتعرضوا لأي هجوم من رعايا جبل الدروز[٥٩]، الذين كانوا يطالبون بإعادة صيدا لهم، لأن أجدادهم كانوا يحكمونها سابقاً منذ القدم، وبأنهم سوف يسترجعونها عندما تحين الفرصة المناسبة[٦٠].

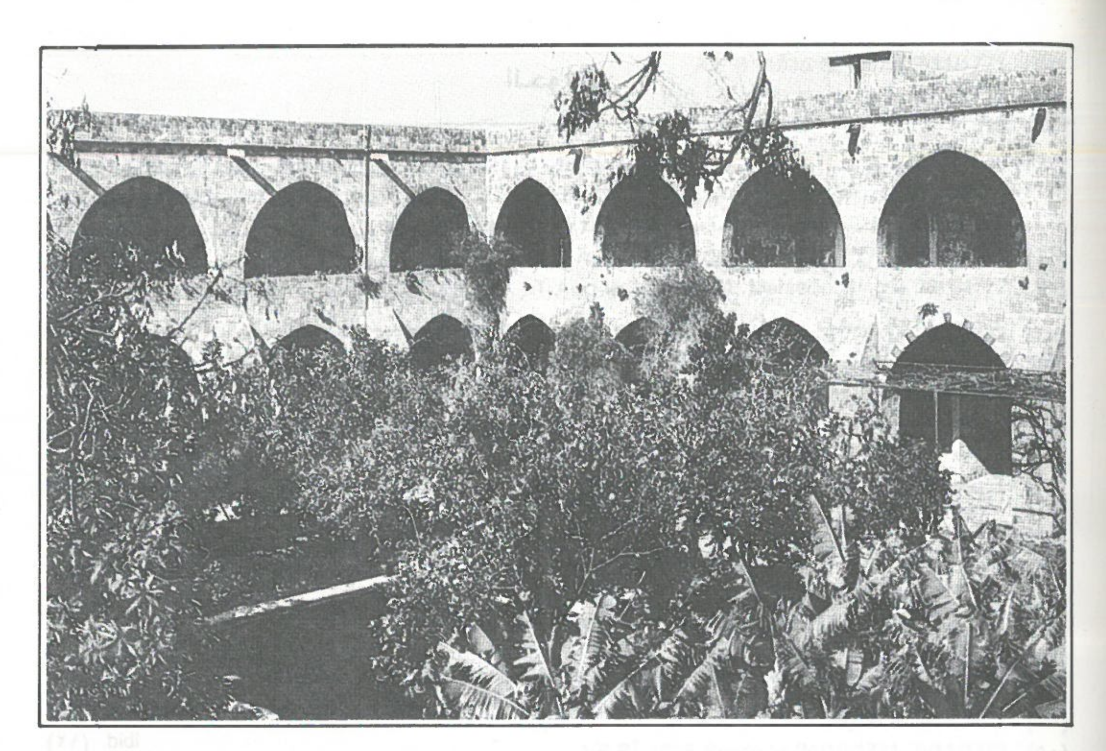
صدى هزائم والي دمشق وحلفائه

وبسقوط صيدا تكون جميع المدن الساحلية الشامية، الممتدة من غزة إلى صيدا وجانب كبير من فلسطين وولاية صيدا، قد تخلصت من السيطرة العثمانية واستبدلتها بنوع من الحكم الثنائي، المكون من ظاهر وناصيف وعلي بك. وبذلك يكون المتحالفان قد حققا الجانب الأكبر من مشروعهما التوسعي المشترك، القاضي بالسيطرة على كل الساحل الشامي[٦١] من غزة إلى طرابلس، على أن تمتد سلطة شيخ البلد لغاية غزة، في حين يخضع لسلطة ظاهر ما تبقى منه، على أن يقوم كلا منهما بالتوسع بمفرده وبجهوده الشخصية في عمق البلاد الخاضعة له. وذلك يمنحهما موقعاً ممتازاً من حيث نجدة بعضهما، وسوف تكون بلاد ضاهر بمثابة حاجز يحمي علي بك من أعتى القوات، ويمكّنه من الانصراف إلى الاهتمام بحماية ما تبقى من حدوده أي من الصحراء والمغرب والبحر[٦٢].

حين علم السلطان العثماني مصطفى الثالث (١٧٥٧ ـ ١٧٧٤) بالهزائم التي مني بها عثمان باشا وحلفائه في بلاد الشام، وجد أن من غير المناسب أن يقيل عثمان باشا في أثناء وجود القوات المملوكية في بلاد الشام، لأن ذلك سوف يؤدي إلى زيادة نفوذ علي بك الذي قد سبق وطلب من السلطان مع حليفه ظاهر العمر بإقالة الباشا، وساعد انسحاب القوات المصرية، بقيادة محمد بك أبي الذهب، من بلاد الشام إلى إعطاء السلطان العثماني حرية الحركة[٦٣]. وفي الثالث عشر من رجب ١١٨٥هـ/٢٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١٧٧١م صدر فرمان سلطاني بنقل عثمان باشا وأبنائه من ولاياتهم[٦٤]، وجعلت الدولة محمد باشا العظم والياً على دمشق[٦٥]، وقدمت إلى الباشا الجديد الولاء والطاعة القوى المحلية في مدينة دمشق وأجزاء الولاية، لكنه ظل عاجزاً عن ممارسة المهام الملقاة على عاتقه بصفته والياً على دمشق. وبدا ذلك واضحاً عند حلول موعد القيام بالدورة السنوية المعتادة لجمع الضرائب المتوجبة على أجزاء ولايته بغرض تأمين مصاريف قافلة الحج الشامي، فقد بلغ ضعفه إلى حد الطلب من ظاهر العمر أن يأذن له بالتجول في أجزاء ولاية دمشق أثناء موعد الدورة، لكن الأخير أبلغه أن لا داعي لذلك وسوف يقوم هو أي الشيخ ظاهر بإرسال عائدات أقاليم ولاية دمشق إليه[٦٦].

ولم تعين السلطات العثمانية ممثلاً لها في ولاية صيدا بديلاً عن درويش باشا، لأن معظم أجزاء الولاية بما فيها العاصمة صيدا كانت قد تخلصت من السيطرة العثمانية وخضعت لحكم المتمردين. ولقد ضاعف قلق الباب العالي فقدان السلطات العثمانية لمدينة صيدا، نظراً لما كان للمدينة من مكانة لدى رعايا جبل الدروز، الذين استمروا بالمطالبة بإعادتها لهم، فهي كانت تخص أجدادهم، وهي منفذ بحري لهم على الخارج يصدرون منه إنتاجهم من القطن ويستوردون ما يحتاجه الجبل من مواد غذائية. ومن هنا نظر الباب العالي نظرة تشاؤم لما قد يقع بعد رفع النفوذ العثماني عن هذه المدينة، وبعد أن كان يتكل على رعايا جبل الدروز أحياناً في التصدي لخصومه، أما الآن بعد زوال سيطرته على المدينة وخضوعها للمتمردين فقد يشك بإخلاصهم له. وتوقع الباب العالي أن يتخلى رعايا جبل الدروز عن محالفة السلطان، وأن ينحازوا إلى جانب علي بك بمجرد أن يلوح لهم بورقة المدينة، لأنها كانت أملهم الوحيد ولم ينسوا بعد علاقة أجدادهم بها[٦٧].

ولكن لم يكن من خصال الشيخ ظاهر العمر إعادة ما أخذه بالقوة، هذا إلى جانب



□ خان الإفرنج في صيدا.

الكراهية المتبادلة بينه وبين الأمير يوسف، فقد كان الشيخ يفضل أن تعود مدينة صيدا إلى سلطة العثمانيين، على أن تكون من نصيب رعايا جبل الدروز الذين تحولوا بموقعهم إلى أعداء طبيعيين له. ولكن بالرغم من الأحقاد فقد كانت المصلحة المشتركة أن يتفقا[٦٨].

وأدى سقوط صيدا بأيدي المتمردين، والاضطرابات التي كانت تسود ولايتي دمشق وصيدا، أن انقطعت المواصلة بين المدينتين وتوقفت التجارة[٦٩].

واتفق الحليفان على كيفية إدارة حكم المدينة، فقد كلف علي بك الكاشف مصطفى بك أن يكون حاكماً للمدينة من قبله، وهذا القائد المملوكي أصله من جورجيا، وكانت تبدو عليه الطيبة والكرم وكان كل الجنود من اتباعه. وكان يمثل سلطة ظاهر أحمد آغا الدنكزلي، وهو من أصل مغربي أو تونسي شرير ويعاقب بدم بارد يعادل قسوته، وكانت السلطة الفعلية في المدينة في يده، وقد أسند إليه مهمة حراسة القلعتين وكان الجمركي مصرياً ويجمع الضرائب لأمر علي بك، الذي يقوم من جهته بتموين الجانب الأكبر من احتياجات الحامية، المؤلفة من مصريين ومغاربة وعدد مماثل لهم من الصفديين رعايا الشيخ ظاهر العمر. وكانت الحامية تتناقص يوماً بعد يوم، ولم تشكل قوة قادرة على الصمود، بالرغم من مجاورة العامليين لها، الذين كانوا على استعداد لنجدتها بقوة مؤلفة من ثلاثة إلى أربعة آلاف رجل. وتوقع المحاصرون إذا توجهت قوة عثمانية مهما كانت درجة ضعفها، يمكنها استعادة المدينة بكل سهولة، لأن القائدين لن يستطيعا منع قواتها التي تقوم بالحراسة من الهرب، إذا لم يبادرا بأنفسهم إل الهرب قبلهم[٧٠]. ●

الحواشي

(١) ادوارد لكروي: أحمد باشا الجزار وأعماله في سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج مسرة، ساو باولو، ١٩٣٤، ص ٤٣٠.

(٢) محمد رفعت رمضان: علي الكبير، القاهرة، ١٩٥٠، ص ١٦١.

(٣) فرنسوا فولني: سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر، ترجمة حبيب السيوفي، جزءان، صيدا، ١٩٤٨ - ١٩٤٩، ج ١، ص ٥٠.

(٤) عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر منذ الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، دمشق، ١٩٥٦، ص ٣٠٦.

(٥) A.E.B[1] 1035 Seyde le 2/5/1771. **ملاحظة:** تشير الأحرف الثلاثة الأولى (A.E.B[1]) إلى وثائق وزارة الخارجية الفرنسية المحفوظة في دائرة الوثائق الوطنية في باريس، ويشير الرقم الذي يليها إلى رقم المجلد، ويليه اسم البلد التي أرسلت منه الوثائق إلى وزارة الخارجية الفرنسية، ويليه تاريخ الوثائق باليوم والشهر والسنة. وهذه الوثائق من أهم المصادر في كتابة تاريخ بلاد الشام في العصر الحديث. يراجع دراستنا لهذه الوثائق في: «حول وثائق المحكمة الشرعية في طرابلس» مجلة تاريخ العرب والعالم، السنة الخامسة، عدد رقم ٥٣، سنة ١٩٨٤، ص ٤٣ وما يليها؛ «لبنان في القرن الثامن عشر نزول في قناصل المخطوطات» صحيفة النهار، تاريخ ١٩٧٩/٦/٢٤.

(٦) Ibid., Seyde le 31/5/1771.

(٧) ibid.

(٨) ibid.

(٩) A.E.B[1] 1035 Seyde le 11/6/1771.

(١٠) Charles-Roux, François. Les Echelles de Syrie et de palestine au XVIII Siecle. paris, 1927, p. 94.

(١١) A.E.B[1] 1035 Seyde le 31/5/1771.

(١٢) ibid.

(١٣) ibid.

(١٤) ibid.

(١٥) Charles-Roux. op.cit., p 94.

(١٦) Loc. cit.

(١٧) A.E.B[1] 1035 Seyde le 12/6/1771.

(١٨) A.E.B[1] 1035 Seyde le 28/6/1771.

(١٩) A.E.B[1] 1035 Seyde le 31/6/1771.

(٢٠) A.E.B[1] 1035 Seyde le 28/6/1771.

(٢١) سليمان المحاسني: حلول التعب والآلام بوصول أبي الذهب إلى بلاد الشام، بيروت، ١٩٣٥، ص ٣٥.

(٢٢) A.E.B[1] 1035 Seyde le 28/6/1771.

(٢٣) ibid.

(٢٤) ibid.

(٢٥) فولني، مصدر سابق، ج ١، ص (٥٠ - ٥١).

(٢٦) لكروي، مرجع سابق، ص ٦٣.

(٢٧) حيدر الشهابي: الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمن، ثلاثة أجزاء، بيروت، ١٩٣٣. يراجع الجزء الأول ص ٨٨؛ حنانيا المنير، الدر المرصوف في تاريخ الشوف (١٦٥٧ - ١٨٠٧)، **مجلة المشرق** م ٤٩، ص ٣٦٣؛ A.E.B[1] 1035 Seyde le 20/8/1771.

(٢٨) RAFEK, (A.K), the province of Damascus (1723-1783). Beirut, 1966, p 299-280.

(٢٩) فولني، مصدر سابق، ج ١، ص ٧٦؛ عبود الصباغ: الروض الزاهر في تاريخ ظاهر. مخطوط موجود في مكتبة يافث في الجامعة الأميركية في بيروت محفوظ تحت رقم MS/956/Z/7mA. ورقة ٣٠؛ مخايل الصباغ: تاريخ الشيخ ظاهر العمر: ص ١٠٠؛ حيدر الركيني: جبل عامل في قرن، **مجلة العرفان**، مجلد رقم ٣٧ - ٣٨ - ٣٩، عام ١٩٣٧ - ١٩٤٠، م ٣٨، ص ٥٤؛ A.E.B[1] 1035 Seyde le 2/9/1771.

(٣٠) المصدر نفسه؛ حيدر الشهابي، مصدر سابق؛ حنانيا المنيّر، مصدر سابق، **مجلة المشرق**، م ٤٩، ص (٣٦٣ - ٣٦٤)؛ حيدر الركيني، مصدر سابق، **العرفان**، م ٣٨، ص ٥٤؛ مخايل بريل، تاريخ الشام، (١٧٣٠ - ١٧٨٣) / ١١٩٦ - ١٩٣٣ حريصا (لبنان)، ١٩٣٠، ص ٦٧. A.E.B[1] 1035 Seyde le 21/9/1771.

(٣١) A.E.B[1] 1035 Seyde le 9/11/1771.

(٣٢) ibid., B[111] 90 Marseille le 29/1/1772.

(٣٣) ibid.

(٣٤) ibid.

(٣٥) **ملاحظة:** الديوان، من الفارسية تشير إلى المكان الذي يتم فيه انعقاد الهيئة الحاكمة، خالد زيادة، اركيولوجيا البحث الوثائقي، معهد العلوم الاجتماعية (طرابلس)، ١٩٨١، ص ٦٥.

(٣٦) A.E.B[1] 1035 Seyde le 13/10/1771, 9/11/1771.

(٣٧) A.E.B[1] 1035 Seyde le 9/11/1771; A.E.B[1] 91 Alep le 17/11/1771; Marseille B[111] le 29/1/1772.

(٣٨) ibid., A.E.B[1] 91 Alep le 17/11/1771; Marseille B[11190] le 29/1/1772.

(٣٩) A.E.B[1] 1035 Seyde le 9/11/1771; Marseille 90 le 29/1/1772; A.E.B[1] 91 Alep le 17/11/1171.

(٤٠) A.E.B[1] 1035 Seyde le 14/10/1771.

(٤١) ibid.

(٤٢) ibid.

(٤٣) A.E.B[1] 1035 Seyde le 20/10/1771, 9/11/1771; Alep 91 le 17/11/1171.

(٤٤) ibid.

(٤٥) فولني، مصدر سابق، ج ١، ص ٧٧؛ عبود الصباغ، مصدر سابق، ورقة ٣١؛ حيدر الشهابي، مصدر سابق، ص ٩٣؛ A.E.B[1] 1035 Seyde le 9/11/1771.

(٤٦) مصدر سابق، ج ١، ص ٧٧. ibid., A.E.B[1] 91 Alep le 17/11/1771.

(٤٧) ibid.

(٤٨) A.E.B[1] 91 Alep le 17/11/1771.

(٤٩) A.E.B[1] 1035 Seyde le 9/11/1771.

(٥٠) A.E.B[1] 1035 Seyde le 24/10/1771, 9/11/1771.

(٥١) ibid.

(٥٢) A.E.B[1] 1035 Seyde le 9/11/1771; 91 Alep le 17/11/1771.

(٥٣) ibid.

(٥٤) حيدر الركيني، مصدر سابق، **مجلة العرفان**، م ٣٨، ص ٥٦.

(٥٥) A.E.B[1] 1035 Seyde le 24/10/1771, 9/11/1771; Alep 91 le 17/11/1771.

(٥٦) A.E.B[1] 91 Alep le 17/11/1771.

(٥٧) A.E.B[1] 1035 Seyde le 9/11/1771.

(٥٨) A.E.B[1] 1035 Seyde (Bulletin) du 30/4-2/5/1771.

(٥٩) A.E.B[1] 1035 Seyde le 9/11/1771; Alep 91 le 17/11/1771.

(٦٠) ibid seyde.

(٦١) A.E.B[1] 1035 Seyde le 9/11/1771, 21/5/1772.

(٦٢) A.E.B[1] 1035 Seyde le 21/5/1772.

(٦٣) Rafek. op.cit., p. 284.

(٦٤) محمد المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ٤ أجزاء، بولاق، ١٣٠١، ج ٣، ص ١٦١.

(٦٥) A.E.B[1] 1035 Seyde le 9/11/1771.

(٦٦) Rafek. op.cit., p. 288.

(٦٧) op.cit., Seyde le 21/5/1771.

(٦٨) A.E.B[1] 1035 Seyde 2/5/1772.

(٦٩) ibide seyde (Bulletin) du 30/4/-2/5/1772.

(٧٠) ibid (Bulletin).